

(٢٢٩) حديث لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا عَدْوَى وَلَا طِيرَةَ وَلَا هَامَةً وَلَا صَفْرَ وَفَرٍّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفَرُّ مِنَ الْأَسَدِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما نفى هذه الأربعة وهي العدوى والطيرة والهامة والصفر والثاني الأمر بالفرار من المجذوم كما يفر من الأسد والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال مامعناه وما الحكمة في نفيه عليه السلام ذلك وهل أمره عليه السلام بالفرار من المجذوم وجوب أو ندب ﴿أما قولنا﴾ مامعناها فإن تلك الأربعة الأشياء كانت من عمل الجاهلية فمعنى العدوى عندهم إذا كان عندهم الجمل بهداء يخرجونه من بين الجمل ويزعمون أن ذلك الداء هو الذي يعدو إلى غيره أى ينتقل منه إلى غيره وقد سئل عن ذلك سيدنا صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله الأبل تكون مثل الظباء حتى يدخل بينهما الأجر ب فيعدوها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فمن أعدى الأول» فنفى بقوله صلى الله عليه وسلم فمن أعدى الأول ما كانوا يعتقدون من ذلك وبين أن حقيقة إصابة الخير والضر على اختلاف أنواعهما في جميع الحيوان عاقلة وغير عاقلة إنما هو بقدرة الله تعالى ومشيتته لا تأثير لشيء في ذلك وأما الطيرة فإنه كان من عادتهم من أصابه منهم ضر من شيء من الأشياء أو بسببه كان يتطير به أو يكرهه وينسب ما جاءه مما لم يعجبه أنه من ذلك وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه حيث قال ( قالوا إن تطيرنا بكم لنموتنَّ ) لم تنتهوا لرجسكم وإيمسنتكم من عذاب أليم ) فجاءهم الجواب طائرهم معكم ففي صلى الله عليه وسلم أن يصيب أحدا من أحد وبال وإنما وبال الشخص من سوء حاله كما قال سبحانه ( طائرهم معكم ) وأما قوله ﴿ ولا هامة ﴾ فإن العرب كانوا يقولون إن المقتول إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يصيح حتى يؤخذ بثأره وقيل يخرج من عظامه إذا بليت فكذب صلى الله عليه وسلم ما ادعوه من ذلك بقوله ﴿ ولا هامة ﴾ أى ليس ما يقولون من ذلك حق وفي هذا دليل على تكذيب كل من يدعى في خلق من خلق الله تعالى أنه متولد عن شيء برأيه أو بكلام غيره من تقدمه ويحكم على القدرة برأيه أو باستنباط حكمة يدعيها أن ذلك كله كذب وليس لعلم ذلك طريق من طريق الحكمة بالجملة الكافية إلا من طريق إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ويبطل بهذا علم الفلاسفة والطبيعيين يعنى وأهل صنعة الفلك لأن ذلك كله برأيهم ليس فيه من الشرع مستند ولا يحل تصديقهم فيما يزعمونه ﴿ وأما قوله ولا صفر ﴾ فإنه دود في البطن يقتل من أصابه فأزال بقوله هذا ما كانوا يتوهمونه من ذلك حتى يعلموا أن الميت إنما يموت بأجله ولا يلتفت لعادة الجاهلية في ذلك ويترتب على هذا من الفقه أنه لا يعمل من

الاسباب إلا الذي جاءت به السنة لا اتباع الأمر أو ما كانت جارية وأبقتها السنة مثل ما كان يعجبه صلى الله عليه وسلم الفأل الحسن وقد كان ذلك من فعلهم في الجاهلية فأقرته السنة ومثل القسامة وعقل العاقلة وما أشبه ذلك ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الأصل في الدارين لا تأثير في الوجود شيء بذاته وإنما التأثير للقدرة نفسها أو ما جماعته القدرة بمقتضى الحكمة وغير ذلك محال ولذلك قال أهل العلم ما معناه إن بروز القدرة إلينا في الأشياء على ضربين منها ما هي مغطاة بصدق الحكمة ومنها ما هي بارزة بذاتها لا تغطي عليها ﴿ وأما قولنا ﴾ الحكمة في نفيه عليه السلام تلك الأربعة الأشياء فلوجوه منها ليحقق أن التأثير في الأشياء كلها للقدرة كما تقدم وغير ذلك محال لأن هذا من حقيقة الإيمان ومنها في التغيير الذي قد يعاقب في النفوس من تلك العوائد لمن فعل ما أو ذلك قال صلى الله عليه وسلم إذا تطيرت فاهض أى لا ترجع عما كانت عليه نيتك قبل فإن ذلك التطير لا يمنع شيئاً ولا يجلبه ومنها شفقتة عليه السلام على أمته ليرحمهم من التعب الذي يلحقهم بالنقيد بتلك العوائد المذمومة ولا فائدة لهم فيها ومنها إبقاء التوادد بين المؤمنين يؤيد هذا المعنى الذي أشرنا إليه قوله عليه السلام في الشؤم إن كان في الدار والمرأة والفرس فإن هذه الثلاث مما يمكن الانفصال عنها وليس على أحد في ذلك كبير مشقة ولم يحقق عليه السلام الشؤم فيها وإنما قال عليه السلام إن كان معنى على زعمكم في هذه الثلاث ونفاه أن يكون في ابن أو أخ أو صاحب أو قريب من القرابة أو في شيء من الأطعمة أو فيما يتمول من الأشياء سوى ما ذكر حتى تبقى نفوس القرابة والأصحاب مجتمعين لا يجد أحد بأحد تغيراً وكذلك فيما فتح الله تعالى عليه من جميع الممولات وترى اليوم عادة بعض الناس يتطهرون ببعض بينهم وبين أصحابهم ويقولون ما أتى على فلان إلا حين ولد له فلان ويكره ذلك الابن من بين بنيه وبوافقهم على ما زعموا وكذلك في الأتخاب ومن يلقونه يقولون ما حرمت اليوم إلا من كوني لقيت فلانا وقد شاع هذا في الناس كثير أو هذا مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ولما نص عليه في هذا الحديث وجاهلية محضة وكفى بهذا شؤماً لأن الشؤم كله والشر كله مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بين العلماء الشؤم الذي في تلك الثلاث فقالوا شؤم المرأة سوء خلقها وشؤم الدار سوء جارها وشؤم الفرس أن لا يجاهد عليه في سبيل الله وأما جوابه صلى الله عليه وسلم للمرأة التي أتت تشكوها له حالها بدارها حيث قالت أتيتها والعدد كثير والمال وافر قل العدد وذهب المال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوها ذميمة فليس فيه تحقيق بشؤمها وإنما قال صلى الله عليه وسلم ذلك ترويحاً لخطرها كأنه عليه السلام يقول ليس يلحقك منها شيء إذا رحلت عنها وتبقى هي مما نسبت أنت إليها ذميمة عندك لا تلتفتي إليها وهنا تنبيه على الشؤم الذي قد تحقق بالكتب والسنة لسكل من لا يرجع عنه وهو الذنوب والمعاصي فإن شؤمها لا يفقد في الدارين

حسنا ومعنى وهذا الشؤم الذى قد نفته الشريعة تعلقت به النفوس إلا القليل وهم أهل التوفيق قاتل الله  
أخا الجباله على نفسه ما أعداه وعن الحق ما أعماه (وأما أمره) عليه السلام بالفرار من المجذوم هل هو على  
الندب أو الوجوب أو من طريق الشفقة احتمل والأظهر أنه من طرق الشفقة بدليلين أحدهما من فعله  
عليه السلام وهو أنه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أكل مع المجذوم في صحفة واحدة وقال «بسم الله لن  
يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» فلو كان الفرار منه واجبا أو مندوبا كان عليه السلام أول من يفعله والدليل الآخر  
أنه قد ذكر من طريق الطب أن تلك الروائح التى لهم تحدث في الأبدان خللا وتتألم النفوس أيضا منها ومن  
شفقته عليه السلام على أمته كل ما فيه لهم ضرر في أى وجه كان ينهاتهم عنه وكل خير في أى نوع كان  
يدلهم عليه فجزاه الله عنا أفضل ما جازى نبينا عن أمته وأما قوله عليه السلام كما تفر من الأسد فهو  
مبالغة في الهرب منه لأن العادة في فرار الناس من الأسد أنهم يكونون منه في البعد بحيث لا يشمون  
له رائحة ولا ياحقهم منه نفس وهم يشتدون في الهرب فهذه غاية في الهرب ويمكن الجمع بينه وبين فعله  
عليه السلام وقوله إن قوله هو الم شروع لنا من أجل ضعفنا فمن فعله فقد أصاب السنة وهى أثر الحكمة  
الربانية وفعله عليه السلام هو حقيقة الإيمان والتوحيد لأن الأشياء كلها ما جعل الله تعالى لها تأثيرا  
إلا بمقتضى جريان حكمته سبحانه وسنته في خلقه ومالم يجعل له ذلك فلا تأثير له وما السكل إلا  
بقدرته عز وجل وإرادته يشهد لذلك قوله عز وجل (وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله) فمن  
كانت له قوة يقين وصدق إيمان فله أن يتبعه عليه السلام في فعله ولا يضره شيء وهو في فعله متبع  
للسنة ومن كان يقينه ضعيفا فله أن يتبع أمره عليه السلام في الفرار ولا يجوز له مع الضعف أن  
يتبع في الفعل لأنه عرى عن شروطه وقد يدخل بفعله ذلك تحت قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم  
إلى التهلكة) ويترتب على هذا من الفقه أن الأمور التى يكون فيها توقع ضرر وقد أبحاث الحكمة  
الربانية الحذر منها أن الضعفاء لا ينبغي لهم أن يقربوها وأن أصحاب اليقين والصدق مع الله تعالى  
في ذلك بالخيار إن شاءوا أخذوا بأحد الوجهين بالفعل أو الترك لأنهم لهم أسباب ذلك متمكنة وقد  
ذكر عن بعض السباحين أنه كان له رفيق في طريقه فمرا على مفازة وهى ضيقة العبور وإذا بها أسد  
فقال لصديقه اذهب ولا تبال فقال له صديقه السنة واسعة إني لأمر عليه ومر عليه أنت ففعل فتقدم  
ومر عليه فلم يضره ورجع صديقه عن ذلك الموضع إلى موضع ثان لسكونه لم يجد في الوقت من اليقين  
ما وجد صاحبه فعمل كل منهما على ما اقتضاه حاله وهذا هو الشأن وفي قوله صلى الله عليه وسلم عند  
الأكل مع المجذوم (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) دليل على أن مقتضى الحكمة الربانية أن  
يصبه من المجذوم أذى لن يدنو منه وفي أمره عليه السلام بالفرار دليل على أن الحكم يعطى  
للغالب يؤخذ ذلك من أمره عليه السلام بالفرار على العموم لأن الغالب من الناس

هو الضعيف فجاء الأمر بحسب ذلك ﴿ تنبيه ﴾ أمرنا بالهرب من جذام الأبدان فن باب أولى الهرب من جذام الأديان وهم أصحاب البدع والشيع لأن المرض في قلوبهم والسم الباطن أشد سر ياناً من الظاهر ومن أجل هذا روى عن بعض علماء السنة أنه كان في زمانه بدعي فجاءه يوماً يرغب منه أن يقرأ عليه آية من كتاب الله تعالى فحالف أن لا يفعل وأخرجه من عنده فقليل له في ذلك فقال لم يأت بتلك الآية إلا وقد دبر معها مكيدة في الدين فالهرب من أهل الزيغ والزلل سبيل النجاة وقد نبهه صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله الجالس الصالح خير من الوحدة والوحدة خير من الجليس السوء أو كما قال عليه السلام وقال بعضهم في هذا المعنى

يقاس المرء بالمرء إذا هو ماشاء وللشيء من الشيء مقابيس وأشباه

حديث الأمر باتخاذ السترة للمصلي (١٣٠)

عن أبي جحيفة رضى الله عنه قال رايت بلالاً جاء بعنزة فركرها ثم أقام الصلاة فرايت رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في حلة مشمرا فصلّى ركعتين إلى العنزة ورايت الناس والدواب يمرّون بين يديه من وراء العنزة

ظاهر الحديث يدل على أن العنزة سترة للمصلي وأن المار خلفها لا شيء عليه ولا على المصلي والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ في صفة العنزة وهل تجزى في سترة المصلي غير تلك الصفة فأما صفتها فقد ذكر العلماء أنها مثل مؤخرة الرجل طولا وغلظا وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم حين سئل عن سترة المصلي فقال قدر مؤخرة الرجل ومنهم من حدها بما يقرب من ذلك وهو أن يكون طولها ذراعا وغلظها غلظ الرمح وبقى الخلاف بينهم فيما لم يكن على تلك الصفة مثل ستر العورة بالثوب وما أشبهه فمن لحظ تلك الصفة التي كان صلى الله عليه وسلم فعل قال لا يجزى غيرها ومن علم وقال ما جعلت السترة إلا من أجل عدم التشويش أجاز ذلك ولذلك اختلفوا في الخط في الأرض هل يجزى عن السترة أم لا على قولين ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز الصلاة بالتشمير يؤخذ ذلك من قوله مشمرا إلا أنه نص الفقهاء أن لا يكون ذلك من أجل الصلاة فإذا كان لضرورة ما فله أن يصلي به على حالته ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن السنة في السفر التشمير ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن إقامة الصلاة لا تكون إلا بعد ما يفرغ من كل ما يحتاج الصلاة إليه والتهيئة لذلك يؤخذ ذلك من أن بلالا لم يقم الصلاة إلا بعد ما فرغ من ركز العنزة ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن وقت الشروع في أمور الصلاة من الإقامة وما يقرب منها لا يشتغل بشيء وإن قل يؤخذ ذلك من كون بلال فرغ من ركز العنزة وهو شيء يسير

جدا وحيث أخذ في الإقامة وبلا لا يفعل ذلك إلا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم (ويترتب عليه من الفقه) خلو القلب عند التلبس بالعبادة من كل شيء، وإن قل يؤيد هذا قوله تعالى (فاذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) (وفيه إشارة) إلى أن المسافر يقدم في سفره ما يحتاج إليه من ضروراته لدينه بحسب ما يعرف من طريقه ويعرف ذلك في رحله يؤخذ ذلك من حملة صلى الله عليه وسلم العنزة في رحله ولأجل هذا قال العلماء ينبغي للمرء أن يكون له في بيته تراب طاهر أو حجر معه للتيمم من أجل أن يطرقه بالليل مرض لا يمكنه معه الطهارة بالماء فإذا كان عنده أحد الأشياء التي يجوز التيمم بها يتيمم ولم يتعطل عليه فريضة وإلا كان مفرطا في دينه (وفيه دليل) على أن القصر في السفر أفضل يؤخذ ذلك من قوله «صلى ركعتين» لأن العلماء اختلفوا في القصر في السفر فمن قائل بالوجوب ومن قائل بعنده إلا لعذر ومن قائل بجوازه والذين قالوا بجوازه اختلفوا أيضا أيهما أفضل هل القصر أو ضده بحسب ما ذكر في كتب الفروع (وفيه دليل) على أن السنة حسن الزى في الصلاة يؤخذ ذلك من قوله «في حلة» والحلة عندهم هي أحسن الزى لأنها ثوبان تستر الجسد كله (وفيه دليل) لمن تأول السترة وعللها بأنها لزوال التشويش يؤخذ ذلك من قوله (ورأيت الناس والدواب يمرّون بين يديه من وراء العنزة) فانه لا شيء للخاطر أشدّ تشويشا من مرور الناس والدواب بين يديه (ونقي بحث) وهو أن يقال هل جعل العنزة على ذلك القدر الذي تقدم ذكره تعبدا لا يعقل له معنى أو هو مما تعقل له معنى فإن قلنا لا يعقل معناه فلا بحث ووجب الاتباع لا غير وإن قلنا لها معنى وهو الأظهر فما هو فتقول والله أعلم لما كانت الصلاة لها تلك الحرمة العظيمة كما تقدم ذكره في حديث الاسراء وكانت قبل في الامم الخالية لا يوقعونها إلا في المواضع التي نصبت لها وقد أمر الله عز وجل برفع تلك المواضع إكراما للصلاة التي توقع فيها بقوله عز وجل (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) ثم إن الله عز وجل مخصص به سيدنا صلى الله عليه وسلم أن جعلت له الأرض مسجدا وطهورا أي في كل موضع منها يجوز إيقاع الصلاة فيه كما تقدم في الحديث قبل بقوله عليه السلام «حيثما أدر كنت الصلاة فصل» وقال عليه السلام في شأن المار بين يدي المصلي «لأن يقف أربعين خريفا خيرا من أن يمر بين يديه» فبحلول وقت أداء الصلاة صارت جميع الأرض مستحقة للمصلي بوقع صلاته حيث شاء منها وبقيت حقوق الناس منها من المرور وغيره متعذرة ممنوعة حتى يفرغ هذا من صلاته فأحكمت السنة بجعل العنزة تحديدا للبقعة التي اختارها المصلي لوقوع صلاته وبقي ما عداها من الأرض لجميع الناس لا حجير عليهم في تصرفهم فيها من مرور وغيره فجاء قوله صلى الله عليه وسلم «لا ضرر ولا ضرار» فبقيت حرمة الصلاة على ما هي عليه وبقي الناس على ما هم في الأرض من المنافع لم يضيق عليهم لأن الدين كما

تقدم يسر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الذي يمر بين السترة والمصلى أنه شيطان لكونه خالف حدود الشريعة وبهذا التعليل يصح ما جاء من جواز أن يكون الخط في الأرض سترة فان البقعة تحدد به وتنحاز من غيرها وتكون العنزة أفضل من الخط لأنها أكثر فائدة في حق المار فان المار قد لا يرى الخط ويمر بين السترة وبين المصلى فيقع في الاثم والعنزة بذلك القدر لا تخفى على أحد وهذه الفائدة والله أعلم جمعت في الارتفاع قدر مؤخرة الرجل لأن ذلك القدر من الارتفاع لا يخفى على أحد ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن سيدنا صلى الله عليه وسلم لا يفعل من الأمور كذاها إلا الارتفاع والأفضل يؤخذ ذلك من أنه لما كانت العنزة فيها زيادة الفائدة التي ذكرنا كان يحملها في رحله وعلى هذا التوجيه الذي ذكرناه يبين فائدة قوله عليه السلام «سترة الامام سترة لمن خلفه» لأن بها تحيزت البقعة التي للصلاة أولا ويكون آخرها بقدر ما تباع إلى صفوفهم فتنبه إلى هذا التوجيه تجده بفضل الله تعالى يجمع لك معاني الأحاديث التي وردت في هذا النوع من أنواع الصلاة ولا يكون بينها تعارض إن شاء الله تعالى وغيره من التعليل قد ينكسر في بعضها ﴿ وقد قيل ﴾ الفقه بالفهم فانتهى لا برواية وإن علت

حديث تحريم لبس الحرير

(٢٣١)

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرُوجَ حَرِيرٍ فَلَبَسَهُ ثُمَّ صَلَّى فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَزَعَهُ نَزْعًا شَدِيدًا كَالنَّكَارَةِ لَهُ ثُمَّ قَالَ لَا يَنْبَغِي هَذَا لِلْمُتَّقِينَ

ظاهر الحديث يدل على كراهية لباس الحرير للمتقين والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ هل يجوز لغير المتقين وهل تلك الكراهية كراهية تنزيه أو تحريم ﴿ أما قولنا ﴾ هل يجوز لغير المتقين إذا عرفنا حقيقة هذا الاسم حينئذ نتكلم في غيره وما يلزمه من هذا الحديث أما التقى فهو اسم يعنى جميع المسلمين لأن الناس فيه على درجات ودلائل ذلك قول الله عز وجل في كتابه ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ فكل من دخل في الاسلام فقد اتقى أى وقى نفسه من الخلود في النار فان اتقى ثانية ومنع نفسه من المعاصى فقد اتقى حسد التقى أى وقى نفسه من دخول النار فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الايمن إيمانان إيمان لا يدخل صاحبه النار وإيمان لا يخلد صاحبه في النار» فالايمن الذي لا يدخل صاحبه النار هو الايمان الذي يكون مع الأمر والنهى والايمن الذي لا يخلد صاحبه في النار هو الايمان مع المعاصى والذي اتقى التقوى الثالث هو في درجة الاحسان لأنه اتقى بالله ما سواه فلم يرفى الوجود سوى الواحد الاحد كما قال صلى

الله عليه وسلم «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا مقام الخصوص وبقي ما عدا المؤمنين فمن قال إنهم مخاطبون بفروع الشريعة فلا يتجه لهم ومن قال إنهم ليسوا بمخاطبين بفروع الشريعة لم يتعرض لهم ((وأما قولنا)) هل الكراهية على التحريم أو التنزيه لفظ الحديث محتمل لكن قد جاءت الأحاديث من خارج تدل على التحريم لأنه قد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحرير إنه حرام على ذكور أمتي والآثار في هذا النوع كثيرة فقد ثبت تحريمه بالسنة على هذه الأمة وهل يستعمل عند الضرورة ويقدم على غيره أولا مثل إن لم يكن لشخص إلا ثوبان أحدهما نجس والآخر حرير فمنهم من قال يصلى في الحرير وكذلك لباسه في الحرب فمنهم من منعه وهو مالك والجمهور ومنهم من أجاز ذلك بشروط وهو الشافعي ومن تبعه والشروط التي ذكرت عنه أن يكون لا لبسه عادما لما يتقى به عن نفسه من آلات الحرب مثل الدرع وما يشبهه من عدة الحرب ويكون ثوب الحرير خشنا لأنه يرد عنه الأذى وأما أن يكون لبسه للزينة في حرب أو غيره فهذا لا يجوز وما اتخذه بعض الناس اليوم من لبسه في الحضر والسفر على وجه الزينة فحرام لا يجوز ولا لبسه عاص وسواء كان اللباس منه كثيرا مثل القبا وما يشبهه أو يسيرا مثل الكوفية وما يشبهها الباب واحد ((وفيه دليل)) على جواز الهدية وقبولها يؤخذ ذلك من قوله أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن الهدية على ثلاثة أوجه كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما هدية لوجه صاحبك فلك وجه صاحبك وهدية للشراب فلك ما أردت وهدية لوجه الله تعالى فلك التي ثوابها على الله أو كما قال وبقي في الهدية تقسيم آخر قسمه العلماء لا يخلو صاحب الهدية أن يكون كسبه حراما أو حلالا أو مختلطا فإن كان حراما فلا تحمل وإن كان حلالا فجائزة وإن كانت ممن كسبه مختلطا فأربعة أقوال بالجواز وبعدهم وبالكراهية وبالتفرقة إن كان الحلال الغالب على كسبه فجائزة وإن كان الحرام الغالب فممنوعة هذا إما خلت الهدية أن تكون رشوة فإنها إذا كانت على هذا الوجه فحرام وذلك هو السحت بعينه وبقيت ((علة التحريم)) هل هي معقولة المعنى أو هي تعبد فان قلنا تعبدنا فلا بحث وإن قلنا معقولة المعنى فما هي فنقول والله أعلم إن العلة فيه كالعلة في التختم بالذهب واستعمال أواني الفضة والذهب وهي أنه لما كان الحرير لباس المؤمن في الجنة منعه هنا كما قال صلى الله عليه وسلم في أواني الذهب والفضة أنها أواني أهل الجنة وقال فيها في حديث آخر عن الكفار هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة وكذلك الجواب على الحرير مثل الأواني سواء بسواء وفي كونه ولانا سبحانه أنعم على المؤمنين بدار كرامته وجعل لباسهم الحرير وآتيتهم فيها الفضة والذهب ثم أنعم على الكفار أنه أعطاهم نصيبا من ذلك في هذه الدار وشاركهم في ذلك طائفة من المؤمنين وهم النسوة وما يباحق لأزواجهن من التمتع بتلك الزينة منهن تحقيق لصفة الرحمة حتى تعم جميع عباده

سبحانه يشهد لذلك قوله عز وجل ( قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ) ( وفيه دليل ) على استغنائه عز وجل عن عبادة عباده وأنه لا تضره معصية العاصين لأنه سبحانه قد أنعم على الكفار وهم على ما هم عليه من كفرهم وهو أعظم المعاصي فقد أنالهم عز وجل طرفا من الرحمة في هذه الدار فلو كان يناله تعالى منها ضرر لم يكن يرحمهم في هذه الدار ولا في تلك الدار ولم يكن أيضا يلحق المؤمنين عذاب ولا آلام في هذه الدار ولا في تلك الدار فسبحان من تنزه وتعالى وتقدس واستغنى عن عبادة العابدين ( وبقي بحث ) وهو ما الحكمة في أن أبيع لبس الحرير للنسوة وهن في جميع أمور الدين شقائق الرجال فان قلنا تعبدا فلا بحث وإن قلنا الحكمة فما هي فنقول والله أعلم لها وجوه ( منها ) أنه لما علم الله من ضعفهن وقلة صبرهن عنه لأن النفوس كثيرا ما تتعلق به فلطف عز وجل بهن في إباحة لبسه ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ) ( ووجه آخر ) وهو أن زينتهن به ليس في الغالب لمن بل هي لأزواجهن وتزين الزوجة لزوجها من جملة حسن التبعيل وحسن التبعيل من الإيمان فلما عرى لبسهن له عن حظوظ النفوس وكان لبسه لمن مما يعين على أوصاف الإيمان وهو حسن التبعيل أبيع لمن ذلك ( إشارة صوفية ) وهي أنه لما كان لبس الحرير أعلا الملابس ولبسه تبلغ النفوس أعلا حظها في جنس اللباس حرم على الذكور الذين فيهم الفجولية وأبيع للأوثية دل بهذا على أن من فيه فجولية في الهمة أن كل ما فيه تناه من جميع ملذذات الدنيا على اختلاف أنواعه لم يعرجوا عليه وإن كان بعضه مباحا أيضا على لسان العلم وزهدوا في جميعها إلا بقدر ما هو عون على الدين وكذلك كل ما كان للنفس فيه حظ لم يعرجوا عليه وإن كان بعضه مباحا أيضا على لسان العلم إلا بقدر ما هو عون على الدين في مثل هذا هو تنافسهم حتى أنه ذكر ( عن بعضهم ) أنه كان مجاورا بمكة وكانت بيده صنعة يرد فيها في اليوم جملة دراهم فلا يعمل من تلك الصنعة التي يعرفها ولا يشتري لنفسه شيئا يقتات به إلا حتى يرى محتاجا فيرهن شمله كانت له فيما يحتاج في تلك الصنعة فيعمل يومه ذلك ثم يفدى شملته آخر النهار ويكون أكله تابع لذلك المحتاج الذي رآه وما يقوى حسن فهمهم قول عمر رضى الله عنه حين تكلم معه بعض الصحابة رضى الله عن جميعهم بأن يحسن لنفسه في أكله ويطيبه فان في عافيته وصحته منفعة للمسلمين فجاء بهم بأن قال لهم كان لي صاحبان وقد ماتا فانا أشاركهما فيما كانا عليه من العيش الغليظ لعل أشاركهما في عيشهما الرغيد أتريدون أن أكون ممن قال عز وجل في حقهم ( أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ) فنفس من ادعى الفجولية وهمة أدنى حالة من الأوثية ويهرج بلسان العلم وهو لا يعلمه من علمنا يعلو الهمة والمساعدة على ذلك بمنه .

(٢٣٢) ﴿حديث النهي عن تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ

ظاهر الحديث الدعاء منه صلى الله عليه وسلم باللعة على من تشبه من الرجال بالنساء وعلى من تشبه من النساء بالرجال والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى اللعة وهل هذا التشبه مطلقاً في كل الوجوه أو على شيء مخصوص وهل هذا الدعاء من النوع الذي هو مخوف أو ضده وهل هذه اللعة لحكمة نعلمها أو تعبد ليس إلا وهل الواقع في هذا تكون التوبة ترفع عنه ما لحقه من ذلك أولاً ﴿أما قولنا﴾ ما معناها فان اللعة في اللغة هي البعد قال الله عز وجل في كتابه ( فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ) أي أن الله أبعدهم فمن أبعد الله تعالى فهو أخسر الناس فان لعنة الله لا غاية لها أعادنا الله من ذلك بحرمة نبيه صلى الله عليه وسلم فهذا في الزجر والنهي أكبر من الحدود التي جعلت في المعاصي لأن تلك الحدود كفارة لهم لما وقعوا فيه وهذا البعد لم يجعل لصاحبه مخرج على لسان الشارع عليه السلام وقد وقع من كثير من الناس التهاون بذلك ووقعوا فيه ولا يحسبونه شيئاً نعوذ بالله من الحرمان ﴿وأما قولنا﴾ هل هو مطلق من كل الوجوه أو هو من وجه ما أما ظاهر اللفظ فمحتمل وأما الذي قد تقرر مما فهم من قواعد الشريعة خلف عن سلف فهو في زى اللباس وبعض الصفات والحركات وما أشبه ذلك وأما التشبه بهم في أمور الخير وطلب العلوم والسلوك في درجات التوفيق فمرغوب فيه وقد عاد اليوم عند بعض الناس وإن كانوا من الذين يشار إليهم الأمر بالعكس فأنهم يمتنعون النسوة من تعلم العلم ويرونه من باب المذموم لهم ويتشبه النساء بالرجال في زيهم ويرونه من قبيل النبل والكيس فانا لله وإنا إليه راجعون على الخلل الذي وقع في الدين بوضع الأمور على ضد ما وضعها الشارع عليه السلام وكثرة التهاون في ذلك ﴿وأما قولنا﴾ هل هذا الدعاء ما هو مخوف أو ضده وهو المرجو خيره لقوله صلى الله عليه وسلم «إني عهدت عند ربّي عهداً أيما بشر لعنته من أمتي أو سببته أن يجعلها عليه رحمة» أو كما قال عليه السلام لعلم وفقنا الله وإياك أن دعاءه صلى الله عليه وسلم على أحد من أمته أو سبه إياه أو لعنته له على ضربين منها ما هو على طريق الزجر والنهي عن شيء في الدين وما هو في معناهما فان ذلك من النوع الخفيف من حقوق الوبال من أجله فان المنع بذلك أشد من الحدود كما بينا أول الكلام وما كان من ذلك على وجه الغيظ والخرج فذلك الذي ظاهره مخوف وهو رحمة في الحقيقة وقد نص صلى الله عليه وسلم على ذلك لأنه قال «يارب إني بشر يلحقني ما يلحق

البشر من الغيظ فأيا أحد من أمي سببته أولعنته فأجعله له رحمة» وهذا الدعاء هنا من قبيل الزجر والردع فهو مخوف وأى مخوف ﴿وأما قولنا﴾ هل هذا الزجر لحكمة نعلبها أو تعبد بالحكمة في ذلك ظاهرة لاخفاء بها وهي إخراج الشبه عن الصفة التي وضعتها عليه حكمة الحكيم كما قال عليه السلام «لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة» وعلل هذا بتغيير خلق الله تعالى فهناك تغيير خلقه وهنا تغيير صفة فالعلة واحدة لأن تينك الطريقتين المذمومتين تضمنتا وجوها من وجوه الضلالات فنها إخراج صفته بجعله عن ما رتبته من له الأمر سبحانه ومنها التشبه بصفة الخلق والاختراع لأن الله عز وجل قد خلق أشياء وجعل لها صوراً وصفاتاً فمن غير منهما صورة أو صفة على خلاف ما وضعت فقد نازع الجليل القدرة في قدرته واختراعه وفيه أيضاً إظهار سوء الأدب حقيقة لأن أدب العبودية موافقة الموالية في كل الأشياء التي شاء تعالى أي نوع شاء تها أشياء من هذا النوع عديدة إذا تأملتها وفيما ذكرنا منها كغاية ﴿وأما قولنا﴾ هل التوبة للواقع في شيء من ذلك رافعة لما قد لحقه من الوعيد أولاً فإن جعلناه من جملة المعاصي ليس إلا فيدخل تحته قوله صلى الله عليه وسلم «التوبة تجب ما قبلها» وإن قلنا إن دعاءه عليه السلام يلحق الواقع في ذلك الذنب أمر زايد من الخسارة والحرمان لأن دعاءه عليه السلام مستجاب فبقي الأمر محتملاً أن يذهب ذلك بالتوبة كما يذهب الذنب أو ذلك أمر قد وقع بالشخص لا يرتفع عنه ذلك الحرمان وإن تاب الأمر محتمل وليس لنا دليل قطعي على أحد الوجهين ﴿ويترتب﴾ على هذا من الفقه أن الوقوع في الكبائر التي لها حدود وعقاب معلوم خير من الوقوع في هذه وأمثالها أعاذنا الله من الجميع بفضله لأن التوبة والحدود في تلك أيهما جاء بعد كان كفارة لها وهذه محتملة أن يكون لها مخرج أولاً مخرج لفاعلمها فالهرب الهرب إن كنت حازماً والعفاف العفاف تكن ناجياً

(٢٣٣) ﴿حديث النهي عن الوصل والوشم﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ  
وَالْمُسْتَوْصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ

ظاهر الحديث لعن هذه الأربعة المذكورة فيه والكلام عليه من وجوه  
﴿منها﴾ أن يقال ما معنى تلك الأفعال التي لعن النبي صلى الله عليه وسلم من فعل منها واحدة  
وما معنى اللعنة فقد تقدم في الحديث قبل معناها وهل هذا النوع من الدعاء المخوف أولاً فقد تقدم  
الكلام عليه أيضاً في الحديث قبل وكذلك في التوبة منها قد تقدم الكلام عليه وما معنى اللعن الذي ذكره  
النبي ﷺ من فعل واحدة من هذه الأربعة ﴿فأما قولنا﴾ ما معناها فإن الواصلة التي تصل شعرها بشعر

آخر ليس من شعرها والحق العلماء بها من وصلت شعرها بأى شيء وصلته من صوف أو حير أو غير ذلك والمستوصلة هي التي تفعل ذلك بغيرها والواشمة هي التي تشتم شيئاً من جسدها وكانت عادت أن يغرزن الموضع الذي يردن أن يعملنه شامة بالحديد حتى يدمن الموضع ثم يحشى بالكحل الأسود فيبقى ذلك الأثر يشبه الشامة التي هي مخلوقة والمستوصلة هي التي تفعل ذلك بغيرها ﴿ويترتب عليه من الفقه﴾ أن عامل المحرم والذي يعينه على ذلك في الأثم سواء يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم في شارب الخمر «لعن الله شاربها وحاملها وبائعها وشاهد ما وعاصرها» ﴿وأما قولنا﴾ مامعنى العلة في ذلك فقد اختلف العلماء فيها فمنهم من قال إن ذلك لما فيها من التدليس وهذا ضعيف لأنه يخصص عموم اللفظ بغير دليل ومنهم من قال لتغيير خلقه الله تعالى وهو الظاهر فإنه قد جاء في حديث غير هذا حين ذكر عليه الفالجة والمتفلجة قال فيه المغيرات لخلق الله تعالى ويحمل على هذا النهى كل ما أشبه ذلك مما يفعله النسوة من تغيير ديباجهن بالخزرة وما معناها وقد جاء عن عمر رضى الله عنه أنه أنكر ما هو أقل من هذا وهو أنه أمر في خطبته النسوة أن لا يخنضن أطراف أصابعهن بالحناء دون باقى أيديهن وقال من كانت خاضبة فالتخضب إلى هنا وأشار إلى تحت الكوعين فإذا كان نهى عمر رضى الله عنه عن مثل هذا فما بالك بالغير من أفعالهن التي هي أشد من ذلك وقد تعددت حتى لا تكاد تحصى عده وبعض من ينسب إلى العلم في الوقت يجعل ذلك من قبيل الزينة الجائزة شرعاً فانا لله وإنا إليه راجعون على ذهاب العلم وأهله ويحتج بما ذكر عن الامام مالك رحمه الله أنه أنكر أن يصح عن عمر أن يجعل ما ذكرنا عنه من الوشم وهذا لا حجة فيه لأن مالكا ما أنكر على عمر مقالته وإنما أنكر أن يعتقد معتقداً ما نهى عنه عمر إلا أنه من الوشم الذي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعله ونهى عمر رضى الله عنه عن ذلك إنما هو لمعان منها أنه أشبه الوشم ولما أشبهه أعطاه حكمه وما حكم به فعليتنا اتباعاً لقوله صلى الله عليه وسلم «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدى» وهو رضى الله عنه وعنهم أجمعين منهم ﴿وطريق آخر﴾ وهو أن ذلك لم يكن في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كان شأنهم أن يخنضن إلى حيث أشار رضى الله عنه فنهاهن من أجل مخالفة السنة وقد يكون نهيه من أجلهما معاً إحداهما قاتلى كيف إذا اجتماعاً وقد قيل إنما أنكر مالك الرواية أن تصح لا الحكم لأن الامام مالك كان أكثر الناس احتراماً لمن تقدمه من السلف فكيف بالخلفاء ولو لم يكن لمالك شاهد على ذلك إلا في مسألة البناء في الرعاف إنه قال القياس والفقه يقتضى قطع الصلاة ولكن إتباع السلف أولى وبذلك ساد على غيره وكذلك سنة الله تعالى بعده في خلقه ما وقع من أحد احترام السلف والاقتداء بهم إلا رفع الله تعالى قدره على أبناء وقته وجنسه جعلنا الله منهم بمنه وفضله

(حديث حق الله على عباده)

(٢٣٤)

عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ يَا مَعَاذُ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مَعَاذُ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ قَالَ يَا مَعَاذُ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ حَقَّ الْعِبَادُ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَعْبُدُوهُمْ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى حُكْمَيْنِ أَحَدُهُمَا الْإِعْلَامُ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ وَهُوَ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْآخَرُ الْإِخْبَارُ أَيْضًا أَنَّ حَقَّ عِبَادِهِ سُبْحَانَهُ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْ لَا يَعْبُدُوهُمْ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ

(منها) أن يقال ما الفرق بين حقه جل جلاله وحق العباد (فالجواب) أما حقه سبحانه فهو واجب لوجوه منها لذاته الجليلة ومنها لأمره عز وجل بذلك ومنها لماله عز وجل علينا من النعم والاحسان التي لا يحصى عددها وأما حق العباد عليه عز وجل إذا فعلوا ذلك فحق تفضل منه عليهم لا وجوب عليه لازم فانه جل جلاله لا حق عليه لأحد لازم هذا مذهب أهل السنة والذي تعطيه الأدلة الشرعية والعقلية خلافاً للقدرية التي هي مجوس هذه الأمة لا أنهم يقولون بزعمهم إن على الله حقاً واجباً أن من عبده أن لا يعذبه وكيف يكون لعبده على مولاه حق لازم وهو كله له هذا ينفيه العقل وقد أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن «بشر العاصين وحذر الطائعين قال إلهي وكيف أفعل ذلك قال بشر العاصين أن رحمتي وسعت كل شيء وحذر الطائعين إن أقمت عليهم عدلي هلكوا» من ذا الذي يطبق عدله وكيف يكون لأحد خلاص إذا أقيم عليه ثم كيف يكون للطائع حق وجوب عليه سبحانه وتوفيقه سبحانه عز وجل إياه للطاعة نعمة عليه يستوجب الشكر عليها (بل الله يمين عليكم أن هذا لكم للأمان إن كنتم صادقين) والمحروم أعنى البصيرة لا يرى إلا من حيث حرمانه (وفيه دليل) على تواضعه عليه السلام يؤخذ ذلك من إرداف معاذ خلفه (وفيه دليل) على جواز ركوب اثنين وأكثر على الدابة إذا طاعت ذلك يؤخذ ذلك من ركوب معاذ خلفه عليه السلام وقد جاء أنه صلى الله عليه وسلم ركب وجعل الحسن والحسين معه أحدهما أمامه والآخر خلفه (وفيه دليل) على من يكره ذلك ويعيبه على أهل المناصب والحجة عليه فعل خير البرية صلى الله عليه وسلم (وفيه دليل) على أن نداء الشخص باسمه أرفع

مانودى به يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم يامعاذ ولو كان النداء بغير الاسم أرفع لكان صلى الله عليه وسلم يفعله نعم إن السكني إذا كانت على الوجه المشروع جائزة وبين الجائز والأرفع فرق بين (( وفيه دليل )) على أن نداء الشخص باسمه قبل إلقائك العلم إليه من أدب العلم وإن لم يكن معكما ثالث وفي ندائك إياه قبل من الفائدة إحضار ذهنه إليك ليعي ما تلقيه إليه لأن الأذهان قد يطررها فكرة فتكون بها مشغولة فلا تعي كل ما يلقي إليها في تكراره عليه السلام نداءه ثلاثاً تأكيداً في حضور ذهنه وإشعار بأن الذي يلقي إليه له بال لأنه عليه السلام كانت سنته أن كل شيء له بال أعاده ثلاثاً ويؤخذ من إبطائه عليه السلام بين النداءين أن من سنة إلقاء العلوم الوقار والتؤدة (( وهنا بحث )) وهو لم زاد في الثالثة بن جبل (( فالجواب )) إنما هي إشارة إلى أن هذه الثالثة آخر النداء فاسمع ما يلقي إليك لأن زيادة بن جبل هو الكمال في التعريف وإذا كمل الشئ مفقدهم ويزيد ذلك المعنى بيانا قوله عليه السلام آخر الحديث (( يامعاذ بن جبل وهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه )) فإن نداءه عليه السلام له آخر واحدة فناداه بأكمل المعرفة وفيما أبدى له دليل على ما أعطاه الله عز وجل من الفصاحة والعجاز في كلامه عليه السلام الذي لا تقدر أن ترى فيه زيادة إلا ولها فوائد جمّة وجواب معاذله عليه السلام بقوله لبيك رسول الله وسعديك من الجواب الخاص به صلى الله عليه وسلم بدليل أنه لم يكن الصحابة يفعلون ذلك بينهم ولا هو صلى الله عليه وسلم فعل ذلك معهم فدل على أن ذلك من الخاص به عليه السلام وقد نص العلماء على جواب الرجل لمن ناداه بقوله لبيك أنه من السفه لأن هذه لفظة جعلت من جملة شعائر الحج وكل ما جعل من شعائر الدين فينبغي توقيره وتعظيمه فإن الله تعالى يقول ( ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ) وقد صار بعض الناس اليوم يجاوبون بها بعضهم بعضاً ويجعلون ذلك من الأدب والنبل وما ذاك إلا لقلة التقوى وعدم معرفة السمة هيئات كيف يتأدب من لا يعرف الأدب وفي قول معاذ (( الله ورسوله أعلم )) دليل على أن من أدب العلم أن يرد إلى أهله وفي قول سيدنا عليه السلام (( هل تدري ما حق الله على عباده )) دليل على أن إلقاء العالم المسائل على تلامذته وحشيد يبين لهم ذلك لأن في ذلك من الفائدة إحضار الذهن لقبول العلم وفي تعليمه صلى الله عليه وسلم معاذاً من غير سؤال منه له صلى الله عليه وسلم دليل لمن يقول إن للعالم أن يعلم دون أن يسأل لأن هذه مسألة اختلاف بين العلماء وفي فصله عليه السلام بالمشى ساعة بين المسئلتين دليل على أن النجس في تحصيل العلوم التفرقة بين المسائل وفي ذلك دليل من الحكمة أن المسئلة إذا تباعدت عن الأخرى يبقى الخاطر معموراً بالأولى حتى ترسخ فيه ثم تأخر الثانية كذلك والتي بعدها كذلك إلى غاية ما يتناهى الحكم وقد أخبرني بعض مشايخي وكان ممن أجمع على فضله أنه حين اشتغاله على شيخه كان بعض الطلبة الذين يشتغلون معه على الشيخ وكان فيه خير وكان يشتغل

بالسبب أنه إذا حضر المجلس ووعى مسألة واحدة قام وخرج إلى مكانه فألقى ذلك بعض الطلبة فسأله عن ذلك فقال له إذا رعت مسألة واحدة بقيت يومى في الدكان أرددها على خاطرى فتشبتلى وإذا سمعت منه عدة كل واحدة تسميني صاحبتي فبلغوا خبره إلى الشيخ فأعجبه ذلك وقال للغير ممن تسكلمو حاسبوا أنفسنا على كثرة سماعكم للمسائل على مسألة واحدة في اليوم فلم يقدرُوا على ذلك فسبحان من وفق أهل السعادة إلى اتباع السنة في الفعل وإن جهلوا بالعلم لأن توفيق هذا المبارك الذى ذكرنا هداية من الحق ليس إلا وقد نص أهل التوفيق على أن قلة العمل مع الدوام خير من كثرتة مع الانقطاع وقد قال صلى الله عليه وسلم «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل» والكلام على قوله صلى الله عليه وسلم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً قد تقدم الكلام عليه في حديث البيعة أول الكتاب بما فيه شفاء

(٢٣٥) ﴿حديث النهي عن سب الأبوين وما يؤول إلى سبهما﴾

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ السَّكْبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَأُمَّهُ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَعْنَهُ الْوَالِدَيْنِ مِنْ أَكْبَرِ السَّكْبَائِرِ وَالْعَمَلُ بِسَدِّ الذَّرِيعَةِ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ بِسَدِّ الذَّرَائِعِ يُوْخَذُ ذَلِكَ مِنْ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ مَا هُوَ ذَرِيعَةٌ لِسَبِّ الْأَبَوَيْنِ سَبَابًا لَهُمَا وَالْكَلَامُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ

﴿منها﴾ أن في هذا دليلاً على عظم حق الأبوين إذ القول الذى هو ممكن أن يترتب عليه سبهما جعله الشارع صلى الله عليه وسلم من أكبر السكبات فكيف بغير ذلك لأنه إذا سب الرجل أباه الرجل من الجائر أن يسب هو أباه ويقول له خلاف ذلك أو يفعل به بدل القول فعلاً مؤلماً لكن لما جرت العادة في الغالب أنه لا يرد إلا بالمثل حكم الشارع صلى الله عليه وسلم بالغالب وفي ذلك دليل على أن تعميم الأحكام إنما هو على الغالب من جرى العادة والمحمتمل النادر لا ينظر إليه ﴿وفيه دليل﴾ على أن كل ما يكون محتملاً أن ينتج منه شر لا يفعل خيفة من وقوع الشر وهو أيضاً من باب الحزم في الأمور ﴿وفيه دليل﴾ على أن الأحكام والمحاطبات إنما تكون على العادة الجارية بين الناس وفيه دليل على جواز مراجعة المفضول المفاضل فيما يقوله الفاضل ويشترط في ذلك الأدب يؤخذ ذلك من قول الصحابة وكيف بلعن الرجل أباه ويؤخذ الأدب من صفة لفظهم لأنهم رضى الله عنهم لم يقولوا لا يكون وإنما سألوا عن الكيفية كيف تكون على طريق الاستفهام فهذا هو عين الأدب في المراجعة ﴿وفيه دليل﴾ على أن من راجع فيما لا يعرف لا عتب عليه إذا كان على

سبيل الاستفادة يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم لم يعتبهم على ذلك وبين لهم الكيفية بلطف في التعليم وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿أكبر الكبائر﴾ فيه دليل على تفاوت الكبائر بعضها على بعض وفيه دليل : على أن من أكبر أفعال الخير معرفة اتباع السنة يؤخذ ذلك من أن من لم يعرفها يحمل مثل هذا فيقع في أكبر الكبائر وهو لا يعلم وقد رجع بعض الجهال اليوم بمازحتهم فيما بينهم أن يلعن بعضهم أبا بعض وبعدهونه بمساسة فنعوذ بالله من الجهل والضلال ولذلك قيل «ما عصى الله بأشد من الجمل» وهو الحق فإن الجاهل لا يزال يقع في المهلكات وهو لا يعلم وهنا ﴿تنبيه﴾ على أن الأصل يفضل الفرع بالوضع وأن فضله الفرع بحسن الصفات قيل له لا تنس فضيلة سبقة عليك لأنه لما كان الأب أصلاً لابن جعل له عليه هذا الحق العظيم فإن فضله الابن بصفة إيمان وهي أفضل الصفات قيل له ( وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك بدغام فلا تطعمها وصاحبهما في الدنيا معروفا ) للفضيلة التي سبقا بها وكذلك يتعدى الحكم لمن كان السبب في هدايتك إلى مولاك وقد جاء «مولاك ثم مولاك من علمك آية من كتاب الله» يا هذا قدمك لك به بعض إحسانه إليك أن كان في الطبع عروبية أشد مما ملك السيد رقة عبده بالمال فإن الأحرار يملكون بالاحسان أكثر وأشد من يملك العبيد بالدرهم والدينار كما ذكروا من وجد الاحسان قيدا تقيد فإذا كانت الطبايع رذيلة أبقى من قيد الاحسان أشد إباق العبد القن محاً الله الهجين لامرودة ولادين ﴿ومن هذا﴾ الباب يترتب عظم حق سيدنا صلى الله عليه وسلم علينا لأنه السبب الموصل لكل خير من الله به علينا في الدنيا والآخرة ﴿وهنا زيادة﴾ لأن هذا الأصل لا يفضل فروع أبداً لا بوصف صفة ولا بمعنى فهو الأصل في جميع الخير وله فيه السبق حساً ومعنى ولذلك ذكر الله عز وجل في محكم التنزيل ( النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ) فإنه ليس من فضيلة من كان أصلاً لخروجك إلى الوجود كمن جعل أصلاً إلى إنقاذك من الجحيم وأثمر ثمرات باعك له خلودك في النعيم فانظر بفطن العقول كيف يتسلسل فضيلة الأصول في إنعام موجد الوجود واذكر الله وأيقظ سنة فهمك لعلها توافق عروبية في طبعك فتبادر إلى مراجعة خدمة مولاك لعل شين إباقك عنه يزله بيد عفوه عنك فالمؤمن ثواب جعلنا الله من سبقته له بالخير سابقة فراجع مولاك قبل الأخذ على غرة والجا إليه فإنه لأرب سواه

﴿حديث ثواب صلة الأرحام﴾

(٢٣٦)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ قَالَتِ الرَّحْمَةُ هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ قَالَتْ بَلَى يَا رَبِّ قَالَ فَهَرِّكْ

ظاهر الحديث الاخبار بعظم ما جعل الله تعالى للرحم من الحق وإن وصلها من أكبر أفعال البر وإن قطعها من أكبر المعاصي والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى قوله ﴿أصل من وصلك وأقطع من قطعك﴾ والكلام على كيفية وصلها وما هو قطعها ﴿فأما قولنا﴾ ما معنى قوله أصل من وصلك فهو كناية عن عظم الاحسان فإن أعظم ما يعطى المحبوب لحبيبه الوصال وهو القرب منه ومساعدته في مرضاته وهذه الأمور في حق مولانا سبحانه مستحيلة أن تكون على ما نعرف من صفات المحدث الفاني بل هي كناية عن قدر الاحسان منه ابدى وعظمه يزيد ذلك قوله عليه السلام صلة الرحم تزيد في العمر ﴿فهذا الوصال في هذه الدار﴾ زائد لما أعد له في الآخرة من الخير والاحسان وكقوله تعالى ﴿يحبهم ويحبونه﴾ فمعنى قوله يحبهم كناية عن عظم إحسانه عز وجل لمن أحبه من عباده لأن ملكا من ملوك الدنيا إذا أحب أحدا أغناه ورفعاه على جميع أهل وقته فكذلك فعل مولانا سبحانه بمن يحبه يحسن إليه غاية الاحسان ويرفعه في الدنيا والآخرة المنزلة العليا ﴿وأما قولنا﴾ ما معنى ﴿واقطع من قطعك﴾ فهو كناية عن شدة الحرمان والعذاب لأن القطع ضد الوصل فكما عبر عن عظم الأجر عبر بالوصل عن عظم البلاء بالقطع أعادنا الله من البلاء بمنه ﴿وأما كيفية﴾ الوصل للرحم فهو على ضربين مختلفين منه ما يكون ببذل المال ومنه ما يكون للرحم ببذل العون على ما يحتاجون إليه أعنى أهل رحمه ومنه ما يكون بالزيارة لهم ومنه ما يكون بالدعاء لهم ومنه ما يكون بكرامهم والبشاشة لهم ومنه ما يكون بدفع المضار عنهم والمعنى الجامع له إيصال ما أمكنه من الخير إليهم على قدر طاقتك بنية القربة إلى الله تعالى إلا أن ذلك بشروط ذكرها العلماء وهي أن يكون على الاستقامة وإلا فمقاطعتهم من أجل الله هو إيصال لهم بشرط أن تبذل جهدك في وعظهم وجرهم والانكار عليهم لأنه إذا قيل لك في الآجني الذي هو أخوك في الاسلام انصره ظالما أو مظلوما فأتقدم ذكره وهو رده عن الظلم فالأقرب من باب أولى فبعد ذلك يكون الهجران لهم وتعليمهم ان هجرانك لهم إنما هو من أجل تخلفهم عن الحق فإذا استقاموا وصلتهم قدر طاقتك في ذلك لكن يبقى عليكم من صلته عند المقاطعة الدعاء لهم بظاهر الغيب أن يصلح الله حالهم ويحيرهم بفضله وأما مقاطعتهم فهي على ضربين إما كلية أو بعضية فالكلية هي أن تمنعهم جميع ما في وسعك من الاحسان إليهم على نحو ما أشرنا إليه قبل قاصدا لذلك أو تكون معاداتهم لحظ نفس أو إبعادهم عنك لمثل ذلك وأما البعض فهو مثل أن تفعل معهم بعض الأشياء وتحرمهم بعضا مع قدرتك عليها وقصدك ذلك فكلاهما محذوران ويخاف من وبالهما لكن الواحد الذي هو السكلى أشد أعادنا الله منهما وفيه ﴿بحوث﴾ منها هل الألف واللام في الخلق للجنس أو للعهد فإن كانت للجنس فمتى كانت وإن كانت للعهد فمتى كان احتمال أن تسكون للجنس وهو عند فروغ المخلوقات على اختلافها وبقي الاحتمال في أي وقت كان ذلك

هل عند الفراغ من ظهورها في اللوح المحفوظ بالكتب وهي بعد لم يظهر منها في عالم الوجود إلا اللوح والقلم لا غير واحتمل أن يكون ذلك عند فروغ خلق السموات والأرض وإحيائه عز وجل في كل سماء أمرها القدرة صالحة لهما معا والعرب تسمى البعض باسم الكل والكل باسم البعض وأما أن يكون على حقيقة ظاهرة وهو أن تبرز جميع المخلوقات في عالم الحس والمشاهدة فلا يمكن لأن من المخلوقات ما لم يبرز بعد في عالم الوجود والحس ونحن نعلم أنه لا بد أن يظهر ويكون قطعاً لازماً مثل الدابة التي تخرج عند قرب الساعة وهي في علم الله لم تبرز ولا ظهرت ومثل من بقي من تناسل جميع الحيوان ومثل الأمور التي هي عند قرب الساعة وقد أخبر بها الصادق صلى الله عليه وسلم وهي لم تظهر بعد وأشياء عديدة إذا تتبعناها وجدناها وإن كانت للعهد وهي عند فروغ خلق بني آدم فتنبى أن يكون عند فراغه جل جلاله من خلق أرواحهم لأنه قد جاء أن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأشباح بألفي عام واحتمل أن يكون عند فراغ خلق الأشباح والأرواح وهو يوم «أستبرئكم قالوا بلى» وهو يوم إخراجهم من صلب آدم عليه السلام مثل الذر وأخذ عليهم العهد لأنها أحد الحياتين في قوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) على أحد الأقاويل (ويترتب عليه من الفقه) أن تعرف أن الألف واللام في الخلق للعهد فتكون صلة الرحم تحتمل وجهين أحدهما أن تكون للجن والانس لأنهما المكلفان وأن تكون خاصة ببني آدم ويكون الفقه أن صلة الرحم خاصة ببني آدم وأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لأن الأمر عام في بني آدم وهم منهم وهنا (بحث ثان) وهو هل كلام الرحم للحق جل جلاله بلسان المقال أو بلسان الحال، إن كان بلسان المقال هل كان ذلك بعد ما جعلها في جوهر ووضع فيها الحياة والعقل أو هي على حالها الكلام على هذا مثل كلام العلماء على كلام الجمادات وهي على ثلاثة وجوه لأن منهم من قال إن كلام الجمادات بلسان حاله ما أظهر الله فيه من أثر قدرته ومنهم من قال إنه خلق لهم حياة وعقلاً حينئذ تكلموا ومنهم من قال إنهم تكلموا وهم على حالهم وهو الظاهر وإن كانت القدرة صالحة للوجوه الثلاثة لكن الوجوهان فيهما تخصيص لعموم لفظ القرآن والحديث بغير دليل شرعي وحصر لقدرة القادر التي لا يحصرها شيء لأن قدرته عز وجل صفة من صفاته فكما ذاته الجليلة لا تنحصر بوجه من الوجوه فكذلك كل صفاته لا تنحصر بوجه من الوجوه فكذلك كل صفاته لا تنحصر منها صفة من الصفات بوجه من الوجوه لأن الصفة لا تفارق الموصوف وقد تقدم الكلام على ذلك أول الكتاب بما فيه شفاء بفضل الله تعالى ومنها أن فيه دليلاً على أن الاستعاذة بالله من أجل الوسائل إلى الله وأنجحها يؤخذ ذلك من قول الرحم هذا مقام العائذ بك فاسعفت في الحال بما رخصت به وبما يقوى هذا الوجه ما جاء في شأن العدو الذي قيل له (واجلب عليهم بخيلك ورجلك) وجعل له أنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه

وجعل لنا النصر والغلبة عليه بالاستعاذة بالله عز وجل ولم يجعل بغير ذلك لقوله عز وجل في كتابه العزيز (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم)؛ قول مريم عليها السلام حين أتاه روح الله الأمين (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) وقول سيدنا صلى الله عليه وسلم «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (وفيه إشارة عجيبة) من طريق حسن المجانسة في الكلام وهي أنه لما كانت صلة الرحم حقيقةً، التوادد بين الأقارب والتعاطف جعلت الصيغة التي تدل على الجزاء عليها من جنس ما هو المعروف من التخاطب بين المحبين والمحبوبين وهي الوصل وفي قوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِن الله خالق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه﴾ دليل على صفتين عظيمتين من صفات الحق سبحانه وهما القدرة والحكمة فأما الدال منه على القدرة فبالإخبار بأنه عز وجل خالق جميع الخلق وأي دليل على القدرة أعظم من اختراع الخلق على غير مثال تقدم ولا معين ولا وزير وأما الدال على الحكمة منه فقوله عليه السلام حتى إذا فرغ من خلقه لأن حتى لازمة للغاية فيعطى قوة الكلام أن من له غاية فله بداية وما بين البداية والنهاية اقتضت الحكمة الربانية لا يعجز من القدرة فإن من قدرته جل جلاله خالق جميع الخلق وهو كما أخبر عز وجل بقوله (وما مسنا من لغوب) لا يمكن أن يكون في قدرته عجز عن شيء من الأشياء بل ما كان في بعض المخلوقات من تأخير أو غير ذلك فلحكمة اقتضتها حكمة من (ليس كمثله شيء) وقد تقدم في أول الكتاب من هذا بيان شاف بفضل الله ورحمته ﴿وفيه دليل﴾ لقول من قال إن رأيك بحسب ما قدر لك يؤخذ ذلك من أنه لما قامت الرحم مقام العائد بالله تعالى من القطيعة وسبق في علم الله سبحانه أن يكون من عباده واصل لها وقاطع لها أيضا أرضاها أن جعل عندها رضى بأن يصل الله من يصلها ويقطع من قطعها فقبلت ذلك ورضيت به بدلا من الذي طلبته لأنها طلبت أن لا قطيعة لها فلو قال لها الحق جل جلاله لك ذلك أى لا تقطعي لم يكن أحد يقطعها ﴿وفيه دليل﴾ لتحقيق قوله صلى الله عليه وسلم «ما من داع بدعوى إلا كان بين إحدى ثلاث إما أن يستجاب له وإما أن يدخر له وإما أن يحط عنه» لأنه عز وجل عوض الرحم بما طلبته ما رآه خيرا لها منه ورضيت به ﴿وفيه دليل﴾ على أن جميع المخلوقات بيد الله سبحانه يصرفها كيف يشاء كما قال صلى الله عليه وسلم «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن» أى بين أمرين من أمر الرحمن مثل الرضى وضده والعزم على الشيء وتركه والزهد وما يضادهما من الأشياء يقلب القلب من طرف إلى ضده في لحظة البصر ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ولهذا المعنى كان أهل التوفيق والمعرفة بالله تعالى أشد الناس خوفا على أنفسهم مع ما كانوا عليه من الخير التام حتى أنه يروى عن بعضهم أنه كان كلما استيقظ من نومه يجر يده على وجهه ثم ينظر

إلى حواشي ثم يحمد الله تعالى ويشكره ويتشهد ويعلم بها فقليل له في ذلك فقال أما جريدى على وجهي فخافه أن يطمس عليه كما أخبر عز وجل وخبره الحق (من قبل أن نطمس وجوها فبردها على أدبارها أو نلغنها كما لغنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا) وأما نظري إلى حواشي العاقبة التي هي متوقفة على الإنسان وأما إعلاني بالشهادة فاختبار لنعمة الإيمان لقوله صلى الله عليه وسلم «ينام الرجل النومة فيسلب عنه الإيمان ويبقى أثره ثم ينام النومة فيقبض أثرها» أو كما قال عليه السلام فإذا رأيت نعمة الإيمان ونعمة الحواس باقية سالمة حمدت الله وشكرته على إبقائه تلك النعمة بفضله جعلنا الله بمن أتمها علينا وجميع نعمه في الدارين بفضله ورحمته آمين آمين يارب العالمين

(٢٣٧) ﴿حديث ثواب عائل البنات﴾

عن عائشة رضي الله عنها قالت جاءني امرأة ومعها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمر واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت فدخل النبي صلى الله عليه وسلم لحديثه فقال من بلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار

ظاهر الحديث إخبار الصادق صلى الله عليه وسلم أنه من أتاه شيئا من البنات فأحسن إليهن كن له سترا من النار أي وقاية تقيه من النار والكلام عليه من وجوه

﴿منها أن يقال﴾ مامنى الاحسان وهل ذلك على عمومه بلا شروط وأوله شروط وهل يحتاج في ذلك إلى نية أم لا وهل ذلك على طول عمرهن وإن كبرن أو ذلك عند صغر سنهن وإن كان فما أحده ﴿فأما قولنا﴾ مامنى الاحسان إليهن فهو ما زاد على القدر الواجب الذي لهن وهو بين من لفظ الحديث فانه لما كانت المرأة ومعها الابنتان فسألت المرأة عائشة رضي الله عنها فلم تجد عندها إلا تلك التمرة الواحدة التي أعطتها كان من أجل احتياجها لها أن تختص بها فلما جادت بها فذلك الاحسان الذي أشار صلى الله عليه وسلم بأن من فعله معهن كان له سترا من النار وهو يتعدى في كل الوجوه التي فيها معاملتهن فمن زادهن في كل وجه منها شيئا على حقهن كان محسنا لهن ومن فعل معهن معروفا في نوع ليس لهن فيه حق الباب واحد ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك على عمومه بلا شروط وأوله شروط فما من وجه من وجوه البر إلا وله شروط فمنها ما هو على ظاهره يستوى في معرفتها الناس كافة ومنها ما لا يعلمها إلا الخواص منهم ﴿فأما معنى قولنا﴾ هل ذلك على عمومه أى إذا وقع منه إحسان إليهن على أى وجه كان على لسان العلم أو غير ذلك أو يكون قد أساء إليهن أو يكون قد ترتب لهن حق عنده فأما ما خالف لسان العلم فلا ينطلق عليه اسم إحسان شرعا وكذلك إذا ترتب لهن قبله حق فلا يقال له محسن بل ذلك من الحق الذي قد ترتب لهن قبله وتقع بينه وبينهن المحاسبة والمحاكمة في الدار الآخرة وكذلك

إن كان قد أساء إليهن من وجه آخر فليس على عمومه ولا يسمى محسناً إلا بعد توفية الحقوق من كل الجهات وعدم الاساءة ويكون فعله ذلك على لسان العلم وحيث يكون محسناً وأما شروطه فهو أن يكون إحسانه إليهن ليس فيه ضرر للغير بعد القيد المتقدم ذكره من لسان العلم وما ذكر معه وأما هل يحتاج ذلك إلى نية أم لا فالنية شرط في جميع الأعمال لقوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» إلا مواضع قد تقرر الحكم فيها لأنها لا تحتاج إلى نية أعنى أن الفعل يحزى بغير نية ويؤجر عليه وهو مثل ما يفعله المرء بغيره من الطهارة وشبهها ومثل زوال النجاسة من الثوب والبدن وما أشبه ذلك «وأما قولنا» هل ذلك مع طول عمرهن أو ذلك في زمان صغر سنهن أما الاحسان إليهن فليس يتقيد بصغر سنهن ولا كبرهن بل حقوقهن مع صغر السن على سبيل الوجوب فمنها لزوم النفقة والكسوة والكفالة فهذا وما هو من نوعه يسقطه كبرهن إذا تزوجن على ما هو المعلوم من عرف الشرع في ذلك وإن كبرن فلا يخرجن عن البنوة أبداً فهن في كل وقت محل للاحسان وهن أيضاً محتاجات إلى ذلك وإن كن على أى وجه كن من اليسار وضده ولكثرة شروط هذا الاحسان كان بعض من ينسب إلى الخير وله البنات والعيلة بعد إحسانه إليهن يقول والله ما أدري هل أتخلص منكن في الآخرة أم لا ثم بدعوا الله سبحانه أن يجعلهن له رحمة بفضله «وفيه دليل» على جواز السؤال يؤخذ ذلك من قولها «جاءتني امرأة ومعها ابنتان تسألني» فلو لم يكن جائز شرعاً لأنكرت ذلك عليها «وفيه دليل» على فضل بيت النبوة وكثرة سخائهن يؤخذ ذلك من كونها لم يكن عندها إلا تلك التمرة الواحدة وجادت بها «وفيه دليل» على جواز ذكر المعروف الذي نفعله إذا لم يكن على وجه المن والافتخار فإن ذلك مفسد له يؤخذ ذلك من ذكر عائشة رضى الله عنها المعروف الذي فعلته مع المرأة للنبي صلى الله عليه وسلم «وفيه دليل» على استحسان فعل المعروف وإن قل يؤخذ ذلك من بذلها تلك التمرة الواحدة ولم تستعملها وقد ذكر عنها أنه جاء سائل إلى الباب وكان عندها غيب فأعطته منه حبة واحدة لشخص يخرجها له فرأت منه أنه استقلها فقالت له كم في تلك الحبة من ذرات تريد بذلك قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وقد نبه بعض العلماء على أن من مكائد الشيطان إذا رآك تعطى الكثير يعدك بالفقر حتى يكسلك عن البذل وإن رآك تعطى اليسير يزهد فيه ويحقره في عينك حتى يحرمك البذل في اليسير والكثير «وفيه دليل» على أن أعلا المعروف جهد المقل ولا يلزمه غير ذلك من طريق الذنب يؤخذ ذلك من تلك السيدة لم تزد على بذل ما كان عندها مع قلتها شيئاً وأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حين أخبرته ولو كان بقى عليها من طريق الاحسان شئ لمنهها صلى الله عليه وسلم عند إخبارها به بذلك «وفيه دليل» لأهل الصوفة الذين أصل طريقهم الايثار وحمل الضيم فيما يخصهم لأن هذه الصفة هي التي عجبت السيدة عائشة رضى الله عنها من

تلك المرأة حتى أخبرت بذلك رسول الله ﷺ وقرر عليه هذا الأصل العظيم ولذلك قيل فيهم ما أحسنهم في جودهم حتى بنفوسهم جادوا ثم جادوا وجدوا حتى وصلوا وسادوا

(٢٣٨) (حديث أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها)

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي إذ وجدت صبيًا في السبي فاخذته فالحقته بطنها وارضعته فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم أترون هذه طارحة ولدها في النسيار قلنا لا وهي تقدر أن لا تطرحه فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها

ظاهر الحديث الاخبار بقدر عظيم رحمة الله تعالى بعباده بمشاهدة ذلك المثال والكلام عليه من وجوه (منها) قوله بعباده هل هو عموم للمؤمن والكافر والحيوانات على اختلافها وغيرها من جميع المخلوقات أو ذلك خاص بالمؤمنين فيكون اللفظ عاما أو معناه الخصوص لفظ العبيد يقتضي العموم وقرينة الحال وهو ذكر طرحها لولدها في النار إشارة إلى تخصيص المؤمنين وتطبيب قلوب السامعين منهم أن مولا هم الذي من عليهم بالايان به لا يعذبهم بناره وقد جاء هذا المعنى صريحا في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله جل جلاله (ورحمي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى قوله تعالى أولئك هم المفلحون) ثبت للمؤمنين الذين هم بتلك الأوصاف المذكورة وأما السنة فالحديث المتقدم وهو قوله صلى الله عليه وسلم «ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله» ثم ذكر «أن حق العباد على الله إذا عبده ولا يشركوا به شيئا أن لا يعذبهم» واحتمل وجها آخر وهو أن يكون معنى المثال الاخبار بأن رحمة الله تعالى لا يشبهها شيء لمن سبقت له فيها نسبة من أي العباد كان حيوانا أو غير حيوان وأنها لا يضر معها شيء وبقي العلم بتحقيق من سبق له فيها نصيب ولذلك قال الفضلاء رضي الله عنهم لا يخطئ بعده أبدا يعنون من سبق له في الأزل رضاه فلا يضره مع السابقة شيء ولذلك قال كم من صديق في العباد وكم من عدو في العباد نظرا إلى السابقة بماذا سبقت وقد سأل بعض أهل الشيع بعض أهل السنة فقال إن الرحيم من حقيقته أن لا يعذب أحدا من عباده فكيف يعذب عباده بالنار وهو الرحمن الرحيم فجأبه السني بأن قال إن الله سبحانه أسماء عديدة منها المنتقم فكل أسمائه عز وجل حقيقة لا يجاز فيها ولا بكل اسم أن يظهر ما يدل عليه في عالم الوجود والخلق فمن خصه بالرحمة فلا يعذبه ومن خصه بالانتقام فلا يرحمه ومن حكمته عز وجل إن يخصص من عباده من شاء بما شاء على مقتضى كل اسم وصفة وقد قال جل جلاله (نبي عبادي

أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الاليم) فهبت الشيعى وكأنه ألهم حجرا أو كما جرى واحتمل وجهها ثالثا وهو لأهل القلوب وهو أن يكون معنى الحديث الحث على التعلق بالله تعالى والزهد فى غيره لأن العباد من شأنهم طلب الحوائج وطلب الخيرات والاستعاذة من المكروهات والسبب فى ذلك طلب بعضهم من بعض المساعدة على ذلك والعادة بينهم أنهم لا يقصدون فى الحوائج ولا تتعلق آمالهم إلا بمن فيه رحمة وإحسان فأخبرهم الصادق صلى الله عليه وسلم أن رحمة المولى سبحانه بعباده على العموم أكثر من رحمة هذه المرأة ولدها التى قد جرت العادة المألوفة من النساء على أولادهن بون عظيم فمن يرد طلب خيرا أو يدفع ضرر أو أى حاجة أرادها فليقصد من رحمة أعظم من رحمة هذه ولدها فهو أنجح له فى حاجته وأيسر له فيما يؤمله ولذلك قال من كان قاصدا فليقصد دولا فهو سبب إلى رحماه وقال بعضهم

هبنى أتيت بلا معنى ولا سبب • أليس أنت إلى معروفك السبب

(( وفيه دليل )) على جواز النظر إلى النساء الذى يسبون قبل القسم يؤخذ من نظره صلى الله عليه وسلم إلى هذه المرأة وإرشاده للصحابه رضى الله عنهم إلى نظرها (( وفيه دليل )) على جواز ضرب المثل بما يعقل ويدرك بالحواس تشبيها بما لا يعقل ولا يدرك بالحواس لتحصل فائدة المعرفة بالشىء من وجهه ما وإن كان لا يحيط المثل به من كل الجهات يؤخذ ذلك من ضربه صلى الله عليه وسلم المثل على عظم رحمة الله تعالى التى لا تصل إليها الأفكار ولا العقول برحمة هذه المرأة على ولدها ومنه بعينه يستدل على أن صفاته سبحانه لا تشبه صفات المحدثات وإن شاركتها فى التسمية يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم والله أرحم بعباده من هذه ولدها والزيادة غير محدودة فلا شبه بينهم ما ولا اشتراك إلا فى التسمية ليس إلا (( وفيه دليل )) على ترجيح أخف الضررين يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم ترك هذه المرأة تشرك أطفال السبي فى الرضاة وربما إذا كبروا يتناكحون وهم إخوة من الرضاة وهذا لا يجوز فلما كان هذا الوجه محتملا أن يكون وأن لا يكون وسد رمقهم فى الوقت بما الحاجة إليه أكيدة تركها تفعل ما هو الأرجح وبهذا يستدل ايضا على أن الضرورة لها حكم على حدة لأنه لولا ضرورة الأطفال فى الوقت إلى الرضاة ما تركها صلى الله عليه وسلم تفعل ذلك من أجل العلة المتقدم ذكرها وهذا البحث هو على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة (( وفيه دليل )) وهو أقوى فى البحث وهو أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة لأن أطفال الكفار فى الدين مثل آبائهم وإن ملكهم المسلمون فلو كانوا مخاطبين بفروع الشريعة لكان سيدنا صلى الله عليه وسلم يقول للصحابه فى ذلك شيئا لأنه عليه السلام المشرع وسكوته عند الحاجة إلى البيان لا يجوز ويترب عليه من الفقه أن أولاد الكفار إذا ملكوا وهم

دون البلوغ أن يحكم لهم بالكفر وإن أسلموا إلا أن يكون إسلامهم بعد بلوغهم وقد نص الفقهاء على أن من سبى منهم دون البلوغ وجبر على الإسلام أو أسلم من تلقاء نفسه ثم مات قبل البلوغ أنه لا يدفن مع المسلمين ولا يصلى عليه فإن حكمه حكم الكفار إلا خلافاً إذا هذا هو الغالب على الظن (وفيه إشارة) لطريق المحبين يؤخذ ذلك من حال المرأة المذكورة في الحديث لما كان حب ابنها قد شغف فؤادها بذات نفسها في أشق الأشياء عليها فيما يشبهه في السن فكيف حالها لو أنها وجدت ابنها لأن كثرة الرضاع والحلب تضعف النساء وكثير منهن إذا كان ابنها قوى الرضاع يهلكها ولا تقدر على إرضاعه وهذه بكثرة وجدها على ابنها قد عمت بالرضاع كل مولود لقيت لشبهه بابنها كما أخبر عن قيس ليلى حيث قال أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

كذلك المحب لا يبالي ما لقي في حق محبوبه ومثل ذلك ما أخبر مولانا جل جلاله في كتابه العزيز في قصة يوسف عليه السلام مع أخيه بنيامين حين اجتمعا فقال بنيامين يوسف عليهما السلام لا أفارقك أصلاً فقال له يوسف عليه السلام لا يمكن ذلك إلا بعد أن تقر على نفسك بالسرقه فرضى بالقائه الوصف الذميم على اليد السالمة من العار والخيانة في حق الإقامة مع الحبيب فقال تعالى (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه إلى قوله عز وجل كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله) هان عليه وصف الخيانة بتوفية رفع الامانة بخلاوة مع الحبيب دون رقيب هذا في حق مخلوق فان فكيف في حب خالق باق هانت والله عليهم النفوس فبذلوها في حب مولاها فوصل عز وجل حبلاهم بحبله وأدناهم وسقاهاهم فأحياهم أهانوا فرفعوها وأذلوا فأعزوها وأفردها فجمعوها وحرموها فأسعدوها وقطعوا العلائق فأمنوا البوائق وحادوا عن ماسوا فلم يجدوا إلا إياه (ومن قول بعضهم) تفردت عن الاكوان بحبه وكذلك عبد الفرد لا يزل فردا فهناهم من هزاهم برضى مولاهم ياطر باهم حين لقاء مولاهم فيامن أسعد بحياهم بحرمتهم الاوردتنا مواردهم يا كريم يا وهاب وصلى الله على سيدنا محمد سيد الانام وعلى آله يا رب وسلم

(حديث رحمة الله تعالى لجميع المخلوقات)

(٢٣٩)

عن أنى هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزء وانزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه

ظاهر الحديث يدل على أن كل ما في جميع الأرض من رحمة في قلوب جميع الخلق جزء من مائة جزء مما

أعد الله لمباده من الرحمة وإن باقى المائة وذلك تسعة وتسعون جزءاً مؤخرة عنده عز وجل لهم والكلام عليه من وجوه «منها» أن يقال ما معنى جعل الرحمة فى مائة جزء وما معنى أمسك عنده ولمن ذلك الامساك هل لجميع الخلق أو لعبيد مخصوصين ولم خص ذكر الفرس من بين سائر الحيوانات وما الفائدة لنا فى الاخبار بذلك وهل لنا طريق الى معرفة كيف إنزال ذلك الجزء أم لا وهل لفظ الخلق يكون عموماً فى الحيوان وغير الحيوان أو يكون خاصاً بالحيوان لا غير وقوله ﴿ وأنزل فى الأرض جزءاً ﴾ هل يريد الجنس أو النوع وهى هذه الواحدة التى نحن عليها ﴿ فأما قولنا ﴾ ما معنى جعل الرحمة فى مائة جزء احتمال وجهين أحدهما أنه سبحانه لما من على خلقه برحمة معينة جعل لهم فى مائة وعاء فأهبط منها وعاء واحداً الى الأرض كما أخبر عليه السلام فى الحديث وبقي الباقي عنده عز وجل واحتمل أن تكون الفاء زائدة ويكون معنى الاخبار أن الرحمة التى من بها على خلقه سبحانه قسمها مائة جزء فأنزل إلى الأرض جزء واحداً لأن العرب كثيراً ما تزيد الحروف فى أول الكلام وهو من فصيحته وأبقى التسعة والتسعين جزءاً عنده ﴿ وأما قولنا ﴾ ما معنى أمسكها عنده أى أنه لم يشأ سبحانه نزولها الى هذه الدار وأمسكها للدار الأخرى وهناك يكون الانعام بإيصالها لمن كتبها له وأما قولنا لمن ذلك الامساك هل لجميع الخلق أو لعبيد معينين منهم أما من الحديث فليس فيه ما يدل على ذلك لكن قد أفصح الكتاب والسنة بذلك فأما الكتاب فأيات عديدة منها قوله عز وجل ﴿ قد أفصح المؤمنون إلى قوله أولئك هم الوارثون ﴾ ومنها قوله تعالى ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى قوله عز وجل أولئك هم المفلحون ﴾ وأما السنة فالأخبار فيها كثيرة منها الاخبار بأمر الساعة وكيف يحشر جميع الخلق فيقال بعد الحساب لكل ما أعد الثقلين الجز والانس «كونوا تراباً، فيعودون تراباً والثقلان قسماً إما شقى ففى النار وإما عبيد ففى الجنة فمن كان فى النار أو صار تراباً لم يبق له فى تلك الرحمة نصيب وبقيت موفرة لأهل دار الكرامة وهم المؤمنون من الثقلين الجن والانس جعلنا الله من أهل دار السعادة بمنه ﴿ وأما قولنا ﴾ ما الحكمة فى كونه خص الفرس بالمثل دون غيره من الحيوان فنقول والله أعلم لما جعل فى الفرس من الخفة والسرعة فى تنقلها فكونها مع ذلك الذى طبعت من سرعة الحركة من أجل الرحمة التى قسم لها منها ذلك الجزء اللطيف ترفع حافرها عن ابنها ووجه آخر وهو أن الخيل تحمل من التعب بالكر والفر وكثرة الجرى والجهد فى ذلك حتى يلحقها من التعب ما لا يلحق لغيرها من الحيوان ثم مع ذلك يشتد احتياج ابنها إليها فلما قسم لها من تلك الرحمة تؤثر الشفقة على ابنها على راحة نفسها حتى ترفع حافرها عنه خيفة أن تصيبه وتعاین ذلك كله منها ما لا تعاینه من غيرها لاسيما العرب هم فى هذا أكثر الناس مباشرة ويخبرون عن الخيل بأشياء عجيبة منها ما ذكر عن ذى القرنين حين أراد أن يدخل الظلمة

التي عارضته حين خرج يطلب عين الحياة وكيف يتأتى له دخول تلك الظلمة وكيف الخروج منها فأشار عليه الذين يعرفون فوائد الخيل بأن قالوا له خذ الاناث من الخيل التي لها بطن واحد فانها أقوى أبصارا وأشد واحبس أولادها في أول الظلمة حيث النور ثم خض بها في تلك الظلمة حيث شئت فاذا أردت الرجوع فاقب رؤسها فانها ترجع إلى أولادها في أسرع وقت ففعل ذلك في الامر كما أخبروه ﴿وَأَقُولُوا﴾ ما الفائدة في الاخبار لنا بذلك فلفوا ائدمنها الاخبار بأن الرحمة في تلك الدار أكثر وأعظم من البلاء لانه عليه السلام قد أخبر عن النار في الاحاديث قيل انها فضلت على نار ناهذه وهي جميع نار الدنيا تسعة وتسعين جزءا والرحمة المذكورة في تلك الدار بتسعة وتسعين جزءا من مثل جميع كل رحمة في هذه الدار إذا جمعت ثم مع ذلك هي خاصة كل المؤمنين ويقوى هذا التأويل قوله جل جلاله على لسان نبيه عليه السلام «ان رحمتي غابت غضبي» لأن أثر الخير الذي هو دال على الرحمة أكثر من المحن الدالة على الغضب فلو لم يكن إلا هذه السكانت فائدة عظيمة ويستدل منها ان رحمة جل جلاله التي هي صفة ذاته الجليلة ليست تحدر ولا تكيف لان تحديد هذه الموهبة وهي أصل الخير والاحسان لا يقدر العقول على حصرها فكيف بالتى هذه الدالة عليها وبهذا علم ان الذات الجليلة ليست بمحدودة ومنها ادخال السرور على نفوس المؤمنين لأن النفس من عاداتها لا يكمل فرحها بالخير إلا إذا كان محدودا فأخبرهم عليه السلام بذلك الحد العظيم ليكمل فرحها بما وهب لها العلم تجده عند احتياجها إليه وفيه تخصيص على الايمان والقوة فيه لان المؤمن إذا علم قدر داره التي قراره فيها وكيفية الخير الذي له فيها قوى ايمانه فكان ذلك عوناً على الزهد في هذه الدار والرغبة في تلك الدار وبما يقوى هذا قوله صلى الله عليه وسلم «لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها» وهذا منه عليه السلام اخبار بتفاوت النسبة بين الدارين وترغيب في تلك وتزهيد في هذه الفانية ﴿وفيه دليل﴾ لأهل السنة الذين يقولون ان نعيم تلك الدار وضده محسوس مدرك وهو الحق الذي لا خفاء فيه وبقتضيه أدلة الكتاب والسنة يؤخذ ذلك من هذا الحديث من قوله عليه السلام ﴿حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها﴾ فان رفع الحافر شيء محسوس لا شك في ذلك ومن أجل ذلك وقع التمثيل به ﴿وأما قولنا﴾ هل لنا طريق الى معرفة كيفية إنزال ذلك الجزء الى الأرض فاعلم ان اتصال تصرف قدرة القادر جل جلاله في المقدورات وكيفية التصرف ليس للعقول فيه محال إلا التصديق والتسليم وقد تقدم أول الكتاب في هذا النوع ما فيه كفاية بفضل الله تعالى ﴿وأما قولنا﴾ لفظ الخلق هل يكون عاما في جميع الخلق حيوانا أو غير حيوان اللفظ محتمل الوجهين معا والذي يعطيه الدلائل من خارج انه عموم الحيوان وغيره لأن قد جاء انه يوم القيامة «تأل الشاة القر ناء لم تطيح الجاء والعود لم خدش العود والحجر لم لامس الحجر» فلو لم يجعل بينهما رحمة لما حوسب على تركها وقد جاء ان الأرض تضم المؤمن إذا جعل في قبره ضم رحمة وتقول له «ما أحب منك

حين كنت تمشي على ظهري فكيف اليوم وأنت في بطنى» والكافر بضد ذلك ومن جهة عظم القدرة العموم أولى ليظهر بذلك تفاوت النسبة بين حالة هذه الدار والدار الآخرة وهو أولى وأظهر ومما يقوى أنها عموم في جميع الخلق قوله تعالى (وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله) ولا تكون الخشية إلا حيث جعلت الرحمة وقد قال عز وجل في الحيوان العاقل (انما يخشى الله من عباده العلماء) والعلماء بالله هم أكثر الناس رحمة وأكثرهم حنانا وشفقة ولا تكون الخشية إلا حيث تكون الرحمة وقد قال العلماء كلما رأيت من جبل انهذ أو حجر انشق فانما هو من خشية الله تعالى وبقي هنا للحكمة الربانية ((أثر عجيب)) في قسمة تلك الرحمة فقد تكون قسمة بعض الجاد منها أبرك وأكثر مما قسم للحيوان العاقل المخاطب فيكون الحجر على صلابته والجبل على قوته يتفتت وينهد ويسيل من الخشية وتكون هذه الجارحة الصنوبرية على أصغرها ولينها لا تؤثر لشيء من أثر قدرة القادر الجليل وهذا من أعظم العجائب لمن فهم ولذلك جاء التوبيخ بها في الكتاب العزيز وليكن المحروم أطرش كم ذا تضرب في حديد بارد تعب بلا فائدة وقوله صلى الله عليه وسلم ((أنزل في الأرض)) هل المراد الأرض الواحدة التي نحن عليها أو جنس الأرض فيكون نزوله في الأرضين السبع اللفظ محتمل يقوى انه للكل ما قاله بعض العلماء ان الأرض الرابعة عمارها الجن وهم أحد الثقلين والمسيكين وبينهم تراحم وتوادد صالحهم وضده وقد قيل عرش إبليس أنه في الرابعة وذكر انه في السابعة وهو وجنوده وإن كانوا على ما هم عليه من الضلال فبينهم تراحم فيما بينهم وتوادد وهو ايضا من جهة عظم القدرة وتفاوت النسبة بين الدارين كما تقدم أولى وأظهر وبقي في الحديث ((بحث لطيف)) وهو ما يعنى بهذه الرحمة هل كل رحمة وجدناها بين العالم كانت من أجل الله أو من أجل حب وولوع أو جواز أو دوام مصاحبة أو الاحسان والآلفة أو أى نوع كانت من تلك الرحمة أو ما هي منها إلا ما كان لله ليس إلا احتمال الوجهين معا والظاهر أنها عامة بأى نوع وجدت فهي من تلك الرحمة الواحدة المنزلة ويقوى هذا الوجه قوله صلى الله عليه وسلم ((حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)) وإنما ترفع الفرس حافرها عن ولدها لما جعل لها من حب ولدها هذا نجد في الحيوان غير العاقل من باب وفي العاقل أحرى وبترتب على هذا الوجه من الفقه وجوه منها اتساع الرجاء في عظم الرحمت المدخرة وتنظيم التباين في النسبة بين الدارين وأن الرحمة التي في تلك الدار خير كلها وما يصدر عنها كذلك وأن الرحمة التي في هذه الدار بنسبة الدار مختلطة بحسب ما تصدر عنه وإليه فما كان منها لله وعن الله فهي خير كلها وما كان في الضد منها فهي في الضد في الاحكام كلها وما كان منها في المباح فهو من نوعه ويقوى هذا التوجيه قوله

تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فممنع عز وجل من الرحمة أن تكون في غير ما يرضى الله فان وقعت فليست برحمة مرحوم فاعلموا بل هي رحمة معاقب صاحبها وعلى هذا فبصر تجد الأمر كلوجهناه وفي الحديث الذي بعده ما يقوى هذا المعنى بحسب ما يفتح الله تعالى في تبين ذلك ولهذه الإشارة جعل أهل التوفيق كل حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم مع القريب والبعيد لله وبالله وبما عليه بعض من نسب إليهم من الدعاء في بعض مراتبه أن قيل له يكون من دعائك اللهم اجعل جميع تصرفي فيما يرضيك إبتغاء مرضاتك «جعلنا الله ممن من عليه بذلك حتى يتوفانا عليه بفضلته وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(٢٤٠) (حديث مثل توادد المؤمنين وتراحمهم مثل الجسد)

عَنْ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا أَشْتَكَى عَضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى ظَاهِرُ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ وَإِنْ تَبَايَعُوا أَوْ تَبَاعَدُوا كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ كُلُّمَا أَصِيبَ أَحَدُهُمْ شَيْءٌ أَصَابَ الْجَمِيعَ مِنْهُ نَسَبَةٌ وَالْكَلَامُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ

(منها) أن فيه تقوية التوجيه الذي وجهناه آخر الكلام على الحديث قبله لأنه عليه السلام جعل توادد المؤمنين وتراحمهم بخلاف توادد غيرهم وتراحمهم وهل التراحم والتوادد والتعاطف ألقاظ مترادفة والمعنى واحدا ولكل لفظ معنى خاص وهل هذا للمؤمن الكامل الايمان أو لكل من دخل تحت هذا الاسم وما الحكمة بأن مثل الايمان بالجسد والمؤمنين بالأعضاء منه (فأما قولنا) هل الثلاثة الألفاظ بمعنى واحد ولعمري فتقول والله أعلم بل هي لمعان مختلفة فقول صلى الله عليه وسلم (في تراحمهم) معناه أن الرحمة التي جعلت في قلوب المؤمنين بعضهم لبعض هو من أجل أخوة الايمان هذا لا لولوع ولا لاحسان ولا لشيء خلاف الايمان هذا هو أصلها وقد تزايد للوجوه الموجبة لرحمته عز وجل كما جاء في حق الجار أن له بنفس الجوار حق فان كان مؤمنا كان له حقان فان كان قريبا كان له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق الايمان وحق القرابة وكذلك ان كان صهرا من الاصهار زاد حق رابع فكذلك الرحمة التي بين المؤمنين تتضاعف بحسب الموجبات لرحمة مثل ما فعل سيدنا صلى الله عليه وسلم حين رفع له ابن ابنته ونفس الصبي تتعقعق كأنها شئ ففاضت عيناه عليه السلام فقال سعد يا رسول الله ما هذا قال هذه رحمة جعلاها الله في قلوب عباده فأنما يحرم الله من عباده الرحمة لما اجتمع له صلى الله عليه وسلم رحمة الايمان وما رأى من صغر الصبي ومن شدة معالجة الموت وما بينهما من النسب

حتى سالت تلك الدمعة المباركة ليتضاءف الرحمة عنده وتواددهم كناية عن التواصل بينهم واستعمالهم أسبابه وأصله أيضا الايمان وقد يتضاءف لموجباته مثل المهاداة لقوله عليه السلام «تهادوا تحابوا» والتزاور والجوار والمشاركات عند الضرورات وكلها يتولد عنه وما فالأصل فيه تواد الايمان وبما نف بحسب موجباته بين الناس وأما التعاطف فهو تقوية بعضهم لبعض كما يعطف طرف الثوب عليه ليقويه وهو من باب قوله عز وجل (رتعاونوا على البر والتقوى) فان أصل الايمان هو الذي عطف قلوب بعضهم على بعض كما قال جل جلاله في كتابه (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وكقصة موسى عليه السلام حين وجد الاسرائيلي مع القبطى فانتصر الاسرائيلي بموسى عليه السلام من أجل جمع الايمان بينهما فركز موسى عليه السلام القبطى من أجل تواد الاسرائيلي فكان من قصتهما ما أخبر عز وجل في كتابه وقد تزايد التعاطف بينهم أيضا لموجباته وأصله الايمان كقصة موسى عليه السلام لما رأى ضعف الاسرائيلي وتعدى القبطى عليه وظلمه وقلة انصار الاسرائيلي تأكد التعاطف عنده موسى عليه السلام حتى أخذ بالضربة الواحدة روح القبطى ﴿واما قولنا﴾ هل هذه الأوصاف للمؤمن الكامل الايمان أو لكل من دخل تحت هذا الاسم فقد بان لك بضرب المثل بسيدنا صلى الله عليه وسلم وبموسى عليه السلام بأن ذلك من أوصاف الايمان الكامل ولا يطلق الشارع صلى الله عليه وسلم لفظ الايمان إلا على كماله ولذلك بين عليه السلام أوصاف المؤمنين ليعرف كل أحد قسمته أين هي وكفى به على نفسه حسبي ولا يغتر باطراء بعض الناس له فان الخبر صادق والناقد بصير وإليه المرجع والمصير ﴿واما قولنا﴾ ما الحكمة بأن شبه عليه السلام الايمان بالجسد وأهله بالأعضاء فذلك من أبداع ما يكون في التسيب لانه لما كانت الايمان أصلا وله فروع وهي جميع التكليفات على نحو ما جاءت به الشريعة المحمدية فاذا نقص من التكليفات شيء أو دخل في بعضها شين شأن ذلك الشين الأصل الذي هو الايمان لانه يقتضى بوضعه الانقياد والامثال فكذلك الجسد وهو واحد مثل أصل الشجرة وأعضاؤه هم المؤمنون لأنهم قد تفرقوا مثل فروع الشجرة فاذا كان شين ما في أحد الفروع شأن ذلك الأصل وإذا ضرب أحد في غصن من أغصانها أهنت الأغصان كلها وتداعت لتلك الضربة كلها بالتحرك والاضطراب فكذلك الجسد إذا ضرب يد القدر عضوا منه مما يؤلمه تداعت له سائر الأعضاء كما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم ﴿وفيه دليل﴾ على ما أعطى الله عز وجل لسيدنا صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والبلاغة ﴿وفيه دليل﴾ لمذهب مالك رحمه الله الذي يقول إن الايمان يزبد وينقص يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام حين بين صفات الايمان السكامل والكمال ضده النقص والنقص ليس على حد واحد فبان ان الزيادة والنقص وفي هذه الأوصاف دليل لطريق أهل السلوك لأنهم يطلبون أنفسهم بتوفية أوصاف الايمان في أنفسهم

ومع غيرهم وقد ذكر عن بعضهم أنه جاءه بعض إخوانه يطلب منه سلفاً فلما أخرج له ذلك السلف خرج وهو باك فقال أخوه ما أبكاك قال له تفر بطي في حقك حيث جئت تطلب مني السلف وأستغفر الله ما جرى منه هكذا فكان ولا فالأصل معاول

(٢٤١) ﴿حديث ثواب من زرع زرعاً﴾

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْساً فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ

ظاهر الحديث يدل على أن كل غرس من المسلمين غرساً فكل من أكل منه شيئاً من جميع بنى آدم أو من جميع الدواب له فيه أجر صدقة والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل المراد بالغرس كلما نبت ويؤكل منه كان له أصل ثابت مثل التمر والمان وما أشبههما أو ما ليس له أصل ثابت مثل القمح والشعير والبطيخ القثا وما أشبهها والمراد الذي ليس له أصل ثابت لا غير وهل يكون الغرس على أى وجه كان أو يكون على وجه مخصوص وهل يحتاج إلى نية في غرسه أم لا وهل يكون الآكل على أى وجه كان بحقه مثل الشرا منه وغير ذلك أو بوجه مخصوص وكذلك الدواب بأى وجه أكلته وهل جميع الدواب في ذلك سواء ما يملك منها وما يملك وهل يباح الطير بالدواب أم لا وهل يشترط في الغرس دوام ملك الغارس عليه حين الأقل منه أم لا وهل يعلم قدر تلك الصدقة أو ليس لنا طريق يعرف به وما الحكمة في الأخبار بذلك وما يترتب عليه من الفقه (أما قولنا) هل المراد بالغرس ماله أصل ثابت وما ليس له أصل أو ماله أصل ثابت ليس إلا إن نظرنا بحسب اصطلاح الناس في الغراسة فلا يطلقونها إلا على كل ماله أصل ثابت وأما ما ليس له أصل ثابت فإنهم يطلقون عليه زراعة وإن نظرنا إلى اللغة فكل ما يبذر في الأرض وينبت ينطلق عليه اسم غراسة مثل ما جاء في وصف الجنة «غرسها الرحمن يده» أى بيد قدرته وهو أن قال لها كوني فكانت بغير واسطة بيد مخلوق من خلقه وقد جاء أن فيها من الفواكه والنعم ما له أصل ثابت وما ليس له أصل ثابت مثل الزعفران الذى هو حشيشها وليس له أصل ثابت وأطاق على الكل غراسة وهذا إذا نظرت من جهة الخير المتعدى النفع فالحبوب التى يكونون عنها بالزراعة أعم فإنها غالب الأقوات وقد كان سهل من فقهاء غرناطة بالآندلس وكان من خير علماء وقته يقول لأصحابه إن الأعمال قد قلت والكسل توالى فأكثر الزرع لأن تكثر حسناتكم وكانت غرناطة الغالب عليها كثرة زرع الحبوب ويسرد عليهم الحديث الذى نحن بسبيله وهذا الذى هو غالب ما اتصل إليه جميع الدواب أعنى الحبوب المزروعة وهذا أيضاً من طريق كرم المولى سبحانه أولى لأن الكرم إذا نكرم لا يحصر بل يوسع ويفسح (وأما قولنا) هل يكون الغرس على